الأوبئة في الطب العربي

د. سلمان قطاية

جميع الحقوق محفوظة

اسـم الكتـاب: الأوبئة في الطب العربي

اسـم المـؤلـف: د. سلمان قطاية

الترقيم الدولي: ISBN:9789776689541

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع © محفوظة لدار المحرر الأدبي للنشر والتوزيع والترجمة المشهرة برقم ٢٤٨٢١ بتاريخ ٢٠١٥/١٠/١. ومقرها جمهورية مصر العربية / محافظة الجيزة.

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون موافقة قانونية مكتوبة من الناشر يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

العنوان: جمهورية مصر العربية/ محافظة الجيزة/ مدينة السادس من أكتوبر/ ٣٣ التمويل العقاري.

هاتف: ٠٠٢٠٢٣٨٨٥٠٦٤٩/ موبايل ٠٠٢٠١٥٥٣٢٤٧٤٨٦

البريد الإلكتروني: tahreradbe@gmail.com

الأوبئة في الطب العربي

د. سلمان قطاية

عرف العرب الأوبئة منذ قديم الزمان.

ويقول في ذلك لوسيان لوكلير(١) "ثمة حادث هام يجب ذكره، وهو يعود إلى ما قبل الإسلام، وهو ظهور أول جدري..

حوالي ٥٧٠، أراد أمير مسيحي من اليمن، وهو ضابط في جيش النجاشي يدعى أبرهة، أن يجعل من صنعاء، مدينته، مكة أخرى، أي مركزاً للحج وذلك في صالح المسيحية، لذا كان عليه أن يهز أركان عبادة الأوثان عند العرب بقوة. ومن أركانها: الحج إلى مكة.

ولتحقيق غايته بنى أبرهة كنيسة رائعة.

وكان لأهل قريش حق حماية الكعبة، وهو سبب أهميتهم وثروتهم، ففكروا في تخريب ذلك المشروع. فأرسلوا رجلاً من قبلهم استطاع أن يتسلم حراسة كنيسة صنعاء وفي مساء إحدى الحفلات الكبرى، دخل إلى المعبد ليلاً وسلح فيه، ثم هرب بعدما أن أعلن عن فعلته.

فوجد أبرهة أن واجبه يقضي بالانتقام لهذا التدنيس. فجهز جيشه وذهب إلى مكة وضرب عليها الحصار. وكان على ظهر فيل أبيض اسمه: محمود.

إلا أن حادثة غير متوقعة أنزلت الاضطراب والفوضى في جيشه، ورأى المكيون في تلك الهزيمة انتقاماً سماوياً. وقد وصف القرآن هذه الحادثة في سورة

الفيل إذ يقول: (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، ألم يجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول).

أرسل الله، إذن، ضد الحبشيين المدنسين، الطيور الأبابيل، يحمل كل منها ثلاثة حجارة واحدة في منقاره واثنتين في رجليه. فألقتها على الحبشيين فقتلتهم في الحال ما عدا أبرهة رئيسهم الذي هرب بسرعة إلى الحبشة. وهناك بينما كان يقص الأمر على ملكه جاءه طير أخير فألقى عليه حجراً فسقط ميتاً.

ومن الطبيعي أن ينقب الباحثون عن الحادثة الطبيعية وراء هذه المعجزة. يعتقد الكاتب الإيطالي رامبولدي، أنه يمكن تقبل فكرة حدوث عواصف عنيفة أعمت جنود أبرهة.

ولكننا نعتقد مع أكثر من مستشرق، أن الأقرب أن نرى في هذه المعجزة جائحة جدري، خاصة أن هذا التفسير يتناسب مع شواهد تاريخية.

إن عام حصار مكة، هو عام ولادة محمد صلى الله عليه وسلم. وقد أطلق عليه بعض المؤرخين العرب عام الفيل. وتوجد وثائق تاريخية تفيد أن أول جائحة جدري حدثت عند العرب في ذلك التاريخ.

ومهما يكن من أمر فالحادثة تشير إلى حدوث جدري في ذلك التاريخ وإلى معرفة العرب له.

هذا وقد جاء في الكتب الطبية العربية ذكر مفصل للأوبئة مع ذكر أسبابها وعلاماتها ومعالجتها.

يقول مدين القوصوني المصري(٢) "الوباء: هو الطاعون أو كل مرض عام. وقال حذاق الأطباء: هو تغير يعرض لجوهر الهواء فيستحيل إلى الرداءة، ويسري في الأبدان بالاستنشاق كسريان السم".

أما أسباب الأوبئة فيجمعها علي بن رضوان(٣) في أربعة:

١-تغير كيفية الهواء: ويكون على نوعين: أما تغير معتاد فلا ضرر منه.

وأما تغير خارج مجرى العادة كان تزداد سخونته أو برودته أو رطوبته أو جفافه أو تخالطه حال عفنية وقد تكون هذه قريبة أو بعيدة.

والمعلوم أن الهواء إحدى الطرق لانتقال الحشرات والهوام ومعها الجراثيم.

٢-تغير كيفية الماء: أن يفرط زيادة أو نقصاناً، أو "تخالطه حالة عفنية". فيضطر الناس إلى شربه. ويفسر تعفن الماء أما بوجود قتلى تعفنت أجسادهم في الماء وأما أن بعض الناس (كأهل فسطاط) يرمون بجثث قططهم وكلابهم وسنانيرهم في مجاري المياه التي يشربونها فتتعفن.

وكلنا يعلم أن الماء هو إحدى الطرق المعتادة لانتقال الجراثيم الوبائية:

كالكوليرا والحمى التيفية، والزحار..

٣-كيفية تغير الأغذية: إذا غير الناس طعامهم كما يحدث في الأعياد. أو إذا فسدت المراعي فتفسد لحوم الحيوانات التي يأكلها الناس، أو إذا فسد الماء الذي يشربه الحيوان.

وبديهي أن الأطعمة على اختلاف أنواعها هي إحدى طرق نقل الجراثيم إلى الإنسان.

أما السبب الرابع فهو الأحداث النفسية لأن العرب كانوا يضعون الأمراض النفسية الجماعية من جملة الأوبئة.

ثم إن العدوى المباشرة من مريض إلى آخر فيشرحها التميمي بالتفصيل في الباب الثالث من المقالة الثالثة من كتابه فيقول(٤):

".. وذلك لأجل أن الهواء يحتمل رائحة ذلك الفساد الذي يظهر من جسد العليل وينفصل عنه بالتنفس فيؤديه إلى الصحيح المجاور له بالتنسم وحمل الهواء للفساد من نفس العليل وإيصاله إياه إلى الصحيح المجاور له إنما هو بكثرة نفس العليل، فإذا استنشق ذلك النفس الفاسد المنفصل منه نفس العليل، من يجاور العليل من الأصحاء الذين يأوون معه ويقربون منه، فسدت أمزجة أبدانهم، وغلبت العفونة عليهم فأمرضتهم فشاركوا العليل في علته..

قال محمد بن أحمد: والدليل على صحة ذلك أنا نرى المنزل الذي فيه الجماعة ممن لم يحصب أو يجدر قط إذا حدث بواحد منهم إحدى هاتين العلتين لم تلبث تلك الجماعة إلا اليسير حتى تنالهم تلك العلة بعينها أما واحداً بعد واحد، وأما لوقت واحد، وليس السبب في ذلك سوى تنسمهم ذلك الهواء الممازج لنفس الوصب.

وقد نجد كثيراً من العلل تعدي من ناقل العليل أو باشره أو واكله أو شاربه أو شرب من إنائه الذي يشرب فيه أو ضاجعه في فراشه. فمن ذلك داء الأسد فإنه يعدي من واكل المجذوم أو شاربه أو أكثر الدنو منه والمجالسة له. وكذلك الوضح أيضاً فإنه من الأمراض المعدية التي تعدي من واكل الأبرص وشاربه وهذان الداءان ليس إنما يعديان الأجنبي من الناس ممن يؤاكل من كانا به أو يشاربه لكنهما يجريان في النطفة ويتبعان النسل ويحدثان في ولد الولد بعد ثلاثة آباء أو أكثر. والسبب الموجب لذلك فساد النطفة الفاسدة المزاج وحلولها في الرحمن وفي جوهرها نفس ذلك الفساد كامناً فيظهر في النسل بعد النمو والترعرع ومما يعدي منه العليل بقوة، وقد بان لي أعداؤه مراراً، علة ذات الرئة أعني قرحة الرئة المفضية بالمريض إلى السل. وكذلك النسمة الكائنة عن السيلان المنصب عن فضول الرأس فإن الوصب قد يعدي بها من الأصحاء من شرب في إنائه الذي يشرب فيه على الإدمان، والسبب في ذلك ما يقبله ذلك الإناء من نفس المريض، ومما يمازج رطوبة الماء من البخار الخارج منه في العليل ومن منخريه، فإن أدمن الشارب الشرب من إنائه تغدت تلك العلة إليه.

فأما الجرب فإنه يعدي من استشعر أو لبس قميصه أو ضاجعه في فراش والسبب في ذلك أن جسد الصحيح يجتذب إليه من مسام جلده بالنفس الخارج من

المسام والداخل فيها بمشاركة الهواء ما قد حصل في ذلك الشعار أو القميص من بخار جسد الوصب فيولد ذلك به جرباً في أسرع الأوقات".

ويؤكد ابن سينا (٥) أن انتقال الأوبئة قد يكون "لسبب رياح ساقت إلى الموضع الجيد أدخنة رديئة من مواضع نائية فيها بطائح آجنة، أو أجسام متجيفة في ملاحم، أو أوباء قتالة، لم تدفن ولم تحرق".

ويذكر أن من علامات الوباء "أن ترى الفأر والحيوانات التي تسكن قعر الأرض تهرب إلى ظاهر الأرض سدره مسمدّرة".

والمعروف أن للفأر دوراً كبيراً في نقل الطاعون.

الجدري والحصبة

يقول القوصوني(٦) في تعريف الحصبة "بثور حمر" متفرقة تكون عند ظهورها كقرص البراغيث ثم تتحبب ولا تتقيح، سببها دم صفراوي حاد لذاع مهياج يظهر سريعاً".

يقول الرازي(٧) "علامات الحصبة: أن يغلظ الصوت وتحمر العينان والوجنتان، ويجد الوجع في الحنجرة والصدر، ويجف اللسان، وتنتفخ الأصداغ، ويحمر الجسد، وتدمع العينان، ويهيج التهوع، فإن رأيت هذه فإنه ستظهر الحصبة، والحصبة تخرج بمرة والجدري شيئاً بعد شيء، والحصبة الخضراء والبنفسجية رديئة وخاصة إن جاءت بغتة فإنه يغشى عليه، ويقتل سريعاً. والجدري الذي يسود لونه

ويجف ولا يمتلئ بل يكون صلباً ثولولياً فإنه يورث الغشي وهو قاتل.

بل يذكر بعض الحالات التي عالجها فيقول(٨) "ابنة الفتح كان جدريّها صغاراً ثولولياً وكان معه ضيق نفس، ولم يكن أسود وكان معه لهيب في البطن شديد فماتت، وأكثر هؤلاء يموتون إذا غشي عليهم مرات واشتد ضيق النفس، وبردت الأطراف، وذلك يكون إذا انقلب بخار الجدري إلى داخل، ونرى الجدري يشبه الحصبة حتى أنه قال الطبيب: إنه حصبة.

وقال (٨ مكرر) "خرج على مكين جدري كثير رديء ففصدناه قبل ضيق حلقه فلم يبق شيء من التطفئة إلا فعلناه به، فصلح وتوسع الحلق وأقبل من الجدري حتى رجوناه، ثم أنه هاج به ضربة وجع في ساقه عظيم جداً وأسود، وعزمت على أن أشرط في ذلك الموضع فسقطت قوته في ساعة. حتى لم أرجه البتة لكن على حال سال الدم من ساقه، ومات من شدة الوجع في يوم واحد".

ولا بد أنه أصيب بالتهاب الشرايين مع غنغرينة في الطرف السفلي وخمج دم فأودى به.

ويقول في التشخيص التفريقي (٩) "إن أوجعتهم ظهورهم ولم يكن بهم شيء آخر من علامات الجدري البتة بل كان بعضهم به إسهال أيضاً وماؤه أبيض، فجدري أيضاً، وبالجملة فلا شيء أخص بالجدري من وجع الظهر مع الحمى. فإن رأيت ذلك في الخريف، فثق بأنه سيخرج جدري دون الحصبة والحصبة لا يكون معها وجع الظهر، وأحسب أن ذلك لشدة تمدد العرق الأجوف الممدود على فقار

الصلب، وفي الحصبة لا يتمدد لأنها من رداءة الدم بلا امتلاء كثير".

ولقد اعترف الغرب بالإجماع في شأن الجدري والحصبة للعرب وللرّازي بهذا الكشف العلمي القيم. وترجمت رسالة الرازي إلى اللاتينية ودرست في المعاهد.

ويقول القوصوني (٦) نقلاً عن الشيخ ابن سينا "قال الشيخ: وهي (الحصبة) كأنها جدري صفراوي والفرق بينهما أن الحصبة صفراوية، وأنها أصغر حجماً، وكأنها لا تتجاوز الجلد، ولا لها سمك يُعتد به، والجدري له نتوء وسمك، وهي أقل منه عدداً أو أقل تعرضاً للعين، والتهوّع، والكرب فيها أكثر والاشتعال أشد ووجع الظهر فيها أقل لأنها تكون عن الدم القليل الفاسد، وهو عن الكثير، وهي في الأكثر تخرج دفعة، وهو يخرج شيئاً بعد شيء وعلامات السالم منها كعلامات السالم منه فالسريع البروز والنضج سليم، والصلب والأخضر والبنفسجي والذي يغيب دفعة ردئ، والبطيء النضج من تواتر الغشي والكرب قاتل".

وكل هذا صحيح برمته.

الطاعون

يقول ابن سينا (١٠) في وصف الطاعون في الفصل المسمى "فصل في الطاعون": هذا الورم القتال يعرض في أكثر الأمر في الأعضاء الضعيفة مثل الآباط، والأربية، وخلف الأذن، ويكون أردؤها ما يعرض في الآباط وخلف الأذن لقربها من الأعضاء التي هي أشد رئاسة. وأسلم الطواعين ما هو أحمر ثم الأصفر ثم الذي إلى السواد لا يفلت منه أحد" ثم يضيف:

"كان مع ذلك ورماً حاراً قتّالاً.. وربما رشح دماً وصديداً ونحوه ويؤدي كيفية رديئة إلى القلب من طريق الشرايين فيحدث القيء والخفقان والغشي، وإذا اشتهرت عوارضه قتل".

ويقول الرازي (١١) في الحاوي "الطواعين ورم حار يعرض في الأربيات والإبط، ويقتل في أربعة أيام أو في خمسة. والطاعون الرديء أسود، والطاعون الأحمر أقل شراً على أنه ربما قتل، ولا يكاد ينجو من الأسود والأخضر أحد".

والمعلوم أن للطاعون شكلين: أحدهما عقدي وهو الذي وصفه ابن سينا والرازي وهو الأكثر تواتراً، والثاني: رئوي، وهو أندر وقد أشار إليه ابن خلدون(١١ مكرر) فقال: "إذا فسد الهواء، وهو غذاء الروح الحيواني وملابسه دائماً، فيسري الفساد إلى مزاجه. فإذا كان الفساد قوياً وقع المرض في الرئة وهذه هي الطواعين وأمراضها مخصوصة بالرئة".

وكان الطاعون من الأوبئة التي كانت تحصد الناس بالملايين خلال العصور الوسطى.

وذكر بلوتارك المؤرخ اليوناني أن أقدم طاعون هو الذي وقع في منتصف المائة السابعة قبل المسيح. وكان الطاعون يهاجم العالم من آن إلى آخر فيحصد الآلاف بل الملايين من البشر ومن أشهر وافدات الطاعون في التاريخ هو الذي حدث في القرن السادس الميلادي ودام ٥٢ سنة (٥٤٢-٥٩٤م).

وأقدم طاعون في الإسلام ظهر أيام عمر بن الخطاب وقتل من الجملة أبو عبيدة بن الجراح. أما أروع وافدة فهي ما سمي بالموت الأسود وحدث في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي وقدر عدد الموتى بعشرات الملايين. ويبدو أنه ظهر في الصين عام ١٣٣٣، ثم انتقل إلى الشرق الأوسط ثم إلى أوربا كلها.

وقد ذكر الغزي في تاريخه ٢٠ وافدة انتابت حلب بين سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨م وسنة ١٢٢٩هـ /١٨١٣م وكان طاعون عام ٧٤٩ هـ /١٣٤٨م ١ رهيباً، وظل يفتك بالناس حتى في سورية عام ١٣٥١م.

ولكنه انقطع في سورية حوالي عام ١٨٣٧م إلا أن العلم كان قد تقدم واكتشف أسباب الداء ووضع له مصلاً مضاداً وذلك على يد يرسان Yersin أحد تلامذه باستور. والوباء حالياً منحصر في بعض مناطق الهند، إذ استطاع العلم الحديث أن يقضي عليه تقريباً كما قضى على الجدري وغيره من الأمراض السارية.

ومن أجود أوصاف وباء الطاعون ما ذكره عبد اللطيف البغدادي (١٢) في كتابه "الإفادة والاعتبار بأرض مصر" من أكل لحم الآدمي وغيره فيقول:

"ولو أخذنا نقتصّ كل ما نرى ونسمع لوقعنا في التهمة أو في الهذر، وجميع ما حكيناه مما شاهدناه لم نتقصده ولا تتبعنا مظانه وإنما هو شيء صادفناه اتفاقاً بل كثيراً ما كنت أفر من رؤيته لبشاعة منظره.

وأما من يتحين ذلك بدار الوالي فإنه يجد منه أصنافاً تحضر مع آناء الليل والنهار وقد يوجد في قدر واحد اثنان وثلاثة وأكثر ووجد في بعض الأيام قدر فيها عشر أيد كما تطبخ أكارع الغنم ووجد مرة أخرى قدر كبيرة وفيها رأس كبير وبعض الأطراف مطبوخاً بقمح وأصناف من هذا الجنس تفوت الأحصاء.

وكان عند جامع ابن طولون قوم يتخطفون الناس ووقع في حبالتهم شيخ كتبي بدين ممن يتبيعنا الكتب فأفلت بجريعة الذقن (١٢) وكذلك بعض قوام جامع مصر وقع في حبالة قوم آخرين بالقرافة فتداركه الناس فخلص من الوهق وله حصاص(١٤) وأما من خرج من أهله فلم يرجع إليهم فخلق كثير: وحكى لي من أثق به أنه اجتاز على امرأة بخربة وبين يديها ميت قد انتفخ وتفجر وهي تأكل من أفخاذه، فأنكر عليها فزعمت أنه زوجها وكثيراً ما يدعي الآكل أن المأكول ولده أو زوجه أو نحو ذلك. ورؤى مع عجوز صغير تأكله فاعتذرت بأن قالت إنما هو ولد ابنتي وليس بأجنبي مني ولئن آكله أنا خير من أن يأكله غيري

وأشباه هذا كثير جداً حتى أنك لا تجد أحداً في ديار مصر إلا وقد رأى شيئاً من ذلك حتى أرباب الزوايا والنساء في خدورهن.

ومما شاع أيضاً نبش القبور وأكل الموتى وبيع لحومهم.

وهذه البلية التي شرحناها وجدت في جميع بلاد مصر ليس فيها بلد إلا وقد أكل فيه الناس أكلاً ذريعاً من أسوان وقوص والفيوم والمحلة والاسكندرية ودمياط وسائر النواحي.

وخبرني بعض أصحابي وهو تاجر مأمون حين ورد من الاسكندرية بكثرة ما عاين بها من ذلك. وأعجب ما حكى لي أنه عاين أرؤس خمسة صغار مطبوخة في قدر واحدة بالتوابل الجيدة. وهذا المقدار من هذا الاقتصاص كاف فاني وإن كنت قد أسهبت أعتقد أني قد قصرت.

وأما القتل والفتك في النواحي فكثير فاش في كل فج ولا سيما طريقي الفيوم والاسكندرية، وقد كان بطريق الفيوم ناس في مراكب يرخصون الأجرة على الركاب فإذا توسطوا بهم الطرق ذبحوهم وتساهموا أسلابهم. وظفر الوالي منهم بجماعة فمثل بهم، وأقر بعضهم عندما أوجع ضرباً أن الذي خصه دون رفقائه ستة آلاف دينار.

وأما موت الفقراء هزالاً وجوعاً فأمر لا يطيق علمه إلا الله سبحانه وتعالى وإنما نذكر منه كالأنموذج يستدل به اللبيب على فظاعة الأمر.

فالذي شاهدناه بمصر والقاهرة وما تاخم ذلك أن الماشي أينما كان لا يزال يقع قدمه أو بصره على ميت ومن هو في السياق أو على جمع كثير بهذه الحال، وكان يرفع عن القاهرة خاصة إلى الميضاة كل يوم ما بين مائة إلى خمس مائة، وأما مصر فليس لموتاها عدد ويرمون ولا يوارون. ثم بآخرة عجز عن رميهم فبقوا في الأسواق بين البيوت والدكاكين وفيها والميت منهم قد تقطع وإلى جانبه الشواء والخباز ونحوه.

وأما الضواحي والقرى فإنه هلك أهلها قاطبة إلا ما شاء الله، وبعضهم انجلى

عنها اللهم إلا الأمهات والقرى الكبار كقوص والأشمونين والمحلة ونحو ذلك، ومع هذا أيضاً فلم يبق فيها الاتحلة القسم (١٥) وإن المسافر ليمر بالبلدة فلا يجد فيها نافخ ضرمة ويجد البيوت مفتحة وأهلها موتى متقابلين، بعضهم قد رم وبعضهم طري وربما وجد في البيت أثاثه وليس له من يأخذ.

حدثني بذلك غير واحد كل منهم حكى ما يعضد به قول الآخر قال أحدهم دخلنا مدينة فلم نجد فيها حيواناً في الأرض ولا في السماء فتخللنا البيوت فألفينا أهلها كما قال الله عز وجل "جعلناهم حصيداً خامدين" فتجد ساكن كل دار موتى فيها الرجل وزوجته وأولاده. قال: ثم انتقلنا إلى بلد آخر ذكر لنا أنه كان فيه أربع مئة دكان للحياكة فوجدناها كالتي قبلها في الخراب، وإن الحائك في بير حياكته ميت وأهله موتى حوله، فحضرني قوله تعالى "إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون"، قال: ثم انتقلنا إلى بلد آخر فوجدناه كالذي قبله ليس به أنيس وهو مشحون بموتى أهله. قال: "واحتجنا إلى الإقامة به لأجل الزراعة فاستأجرنا من ينقل الموتى مما حولنا إلى النيل كل عشرة بدرهم، قال: ولكن قد بدلت البلاد بالذئاب والضباع ترتع في لحوم أهلها.

ومن عجيب ما شاهدت أني كنت يوماً مشرفاً على النيل مع جماعة فاجتاز علينا في نحو ساعة نحو عشرة موتى كأنهم القرب المنفوخة هذا من غير أن نتصدى لرؤيتهم ولا أحطنا بعرض البحر. وفي غد ذلك اليوم ركبنا سفينة فرأينا أشلاء الموتى في الخليج وسائر الشطوط كما شبهها ابن حجر بانابيش العنصل وخبرت عن صياد بفرضة تنيس أنه مر في بعض نهار أربعمئة غريق يقذف بهم النيل إلى البحر الملح. وأما طريق الشام فقد تواترت الأخبار أنها صارت مزرعة لبني آدم بل محصدة، وأنه عادت مأدبة بلحومهم للطير والسباع وإن كلابهم التي

صحبتهم من مجلاهم هي التي تأكل فيهم. وأول من هلك في هذه الطريق أهل الحرف عندما انتجعوا إلى الشام وانتشروا في هذه المسافة مع طولها كالجراد المحسوس، ولم تزل تتواصل هلكاهم إلى الآن، وانتهى انتجاعهم إلى الموصل وبغداد وخراسان وإلى بلاد الروم والمغرب واليمن ومزقوا في البلاد كل ممزق.

وكثيراً ما كانت المرأة تتملص من صبيتها في الزحام فيتضورون حتى يموتوا.

وأما بيع الأحرار فشاع وذاع عند من لا يراقب الله، حتى تباع الجارية الحسناء بدراهم معدودة، وعرض عليّ جاريتان مراهقتان بدرينار واحد، ورأيت مرة أخرى جاريتين إحداهما بكر ينادى عليهما بأحد عشر درهماً.

وسألتني امرأة أن اشتري ابنتها وكانت جميلة دون البلوغ بخمسة دراهم فعرّفتها أن ذلك حرام فقالت خذها هدية. وكثيراً ما يترامى النساء والوالدان الذين فيهم صباحة على الناس بأن يشتروهم أو يبيعوهم وقد استحل ذلك خلق عظيم ووصل سبيهم إلى العراق وأعماق خراسان وغير ذلك".

وقد ألفت كتب كثيرة في الطاعون، وخاصة في عصور الانحطاط حيث نم يعد يعرف الإنسان كيف يفعل ليتدارك هذا الوباء.

ومن أشهر الكتب كتاب "بذل الماعون بفضل الطاعون" للعسقلاني الكناني وهو قليل الفائدة الطبية.

يذكر فيه أن أفظع طاعون كان بمصر والشام ٨٤٩هـ / ١٤٤٥م ثم يصف الطاعون في حلب فيقول "وهذا الذي جلب لأهل حلب الانزعاج استرسل بعنانه أو إنساب وسمي طاعون الأنساب وهو أعظم طاعون وقع في الإسلام، وعندي أنه الموت الذي أنذر به نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام، فلو رأيت الأعيان وهم يطالعون في كتب الطب الغوامض ويكثرون في العلاج من أكل النواشف والحوامض، قد تنغص عيشهم الهني، بملاطخة مسلم الطينة الطين الأرمني، وقد لاطف كل منهم مزاجه وعدل، وبخروا بيوتهم بالعنبر والكافور والسعد والصندل، وتختموا بالياقوت، وجعلوا البصل والخل والطحينة من جملة الأدم والقوت وأقلوا من الأمراق والفاكهة، وقربوا إليهم الأترج وما شابهه:

حلب والله يكفي شرها أرض مشقه

أصبحت حية سوءٍ تقتل الناس ببزقه

فلو شاهدت كثرة النعوش وحملة الموتى، وسمعت بكل قطر من حلب نعياً وصوتاً، لوليت منهم فراراً، وأبيت فيهم قراراً، ولقد كثرت فيها أرزاق الجنائزية فلا رزقوا، وعاشوا بهذا الموسم وعرقوا، فلا عاشوا ولا عرقوا، فهم يلهون ويلعبون، ويتقاعدون على الزبون، اسودت الشهباء في عيني من وهم وغش، كاد بنو نعش، أن يلحقوا ببنات نعش، فنستغفر الله من هوى النفوس فهذا بعض عقابه، ونعوذ برضاه من سخطه وبمعافاته من عقابه:

قالوا فساد الهوا يردي يردي هوى الفساد

كم سيئات وكم خطايا نادى علينا بها المنادي

ومما أغضب الإسلام، وأوجب الآلام، أن أهل سيس٢ الملاعين مسرورون لبلائنا بالطواعين، حتى كأنهم في أمان أو عليه أن لا يقربهم ضمان، أو كأنهم إذا ظفروا، ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا:

سكانُ سيس يسرّهم ما ساءنا وكذا العوائد من عدوّ الدينِ

الله ينفذه إليهم عاجلا ليمزّقَ الطاعون بالطاعونِ

وفي دار الأوقاف الإسلامية بحلب للكتب، ستة مخطوطات عن الطاعون معظمها إن لم نقل كلها مأخوذ عن هذا أي كتاب ابن حجر، وهذا يدلنا على ما كان للطاعون من رهبة وأهمية والواقع أنه داء رهيب، ذاقت منه حلب الأهوال الشداد.

والمؤلف هو الحافظ شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني الكناني الشافعي ولد في القاهرة سنة ٧٧٤هـ /١٣٧٢م ودرس بدمشق والحجاز وبغداد والقاهرة وأصبح قاضي القضاة وتوفي سنة ٨٥٢هـ /١٤٤٩م وله عشرات الكتب في مختلف المواضيع والكتاب يعود إلى عصور الانحطاط بعد أن انحسر الفكر العلمي وطغى الفكر اللا علمي الذي يعتمد على الروحانيات في شكلها الرديء وأقصد القريب من الشعوذة والسحر. وقد يكون العذر في ذلك هو العجز التام للطب في الوقوف في وجه الداء الرهيب.

ولم يكن الحال في أوروبا بأفضل. ويقول كنييث والكر (١٦) في ذلك:

"إن ظهور الأوبئة وبشكل خاص الطاعون، كان يعزى إلى أسباب إلهية وتعني عقاب البشر بسبب ذنوبهم.

ولقد سبب هذا الشعور الأليم بالذنب، في أوروبا، ظهور بدعات يمكن تصنيفها "بالهستيريا الجماعية"٣. وهكذا فكانت الكنائس تمتلئ بالمصلين وتسمع الصلوات الممزوجة الأنين والصرخات في كل مكان.

أما المتعصبين فقد كانوا يعاقبون أنفسهم بأنفسهم وعلانية، ويشجعون الآخرين على ذلك. وانتشرت الهستيريا في كل مكان.

ووصل الأمر في هنغاريا أن أسست جمعيات لجلد المذنبين عرفت باسم "أخوة الصليب" فكانت ترسل إلى كل أنحاء العالم مبشرين مرتدين ملابس خشنة ذات ألوان قاتمة، مع صليب ضخم أحمر على صدورهم. كان هؤلاء يحملون أسياطاً ذات ثلاث شعب تنتهي كل منها بكرة صغيرة من الحديد، فكانوا يجتازون المدن، رؤوسهم مغطاة بالقلنسوة، وأعينهم تنظر إلى أسفل. وكانوا يستقبلون بقرع الأجراس. عندئذ يجتمع السكان في ساحة القرية أو المدينة، لمشاهدة التعذيب. وكانت تقام هذه الحفلة مرتين في اليوم. وبعد أن يحصل المبشرون على عدد واف من المقتنعين بالطريقة، يذهبون إلى مدينة أخرى.

ولكن هذه الهستيريا كانت أحياناً تظهر بأشكال مغايرة، على شكل رقصات

تشنجية عصبية تسمى برقصة القديس جي Saint Guy، أو القديس حنا وكانت تقام في الساحات العامة، يشترك فيها بعض الراقصين فيصرخون ويولولون ويبكون ويتشنجون حتى يسقطوا على الأرض من الإنهاك. ويشترك معهم الناس فيصبح الأمر عبارة عن تظاهرة جنونية جماعية علنية.

وهكذا مثلاً في عام ١٣٧٤ في مدينة ايكس لاشابيل اشترك مئات من النساء والرجال في رقصة من هذا النوع، فذهبوا بعد ذلك إلى مدن أخرى.

وعندما وجدت الكنيسة أن الأمر كاد أن يفلت من زمامها أمرت بإقامة حفلات منظمة لطرد الأرواح الشريرة من هؤلاء الذين تلبستهم".

المعالجة

لعل أفضل كتاب وضع في العربية عن الأوبئة هو كتاب "مادة البقاء في إصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الوباء" للتميمي ويقول في المقدمة(٤):

"فكان الأولى بالذين يتولون منهم علاج ملوكها وخاصة رؤسائها وعامة أهلها أن تكون عنايتهم بمداواة الهواء الفاسد المحدث لوقوع الأوبئة بها الجالب الطواعين على سكانها أولى وأوجب من عنايتهم بمداواة ما يتحصل بذلك من الأمراض المخوفة في أجساد أهلها، وأن يصرفوا هممهم إلى ذلك، ويفرغوا له نفوسهم..

.. ولم أر أحداً من المتقدمين منهم ولا من المتأخرين أمعن النظر في ذلك وعني به أتم عناية حتى وضع له كتاباً ونصب له أمثاله من العلاجات فكان من

بعده يقتدي به ويسلك في ذلك محجته غير الفاضل أبقراط فإنه وضع كتاب الأهوية والبلدان والمياه.. وكذلك وجدته في وضعه الكتاب المسمى أفيديميا وما ذكر فيه من الأمراض الوافدة".

الكتاب مؤلف من عشر مقالات ذكرنا نبذاً منها فيما سبق، ونسرد نبذاً أخرى تتعلق بالمعالجة الوقائية والدوائية فيقول(٤):

"فاسأل كافة الناس من ذوي الأسنان المختلفة الأمزاج المتغايرة عند فساد الهواء، وتنسم الطواعين، والأمراض الوافدة في الناس أن يتجنبوا دخول الحمامات وأن يهجروها مدة ذلك الفساد.. وأما ذوو النعمة من الملوك والرؤساء وذوو الثروة واتساع الحال ممن له حمام ملاصق لمنزله أو بالقرب منه.. فليدخلها ولا يطل المكث فيها".

ويشدد على أهمية النار كأداة للتعقيم والتطهير فيقول: (٤)

"قال محمد بن أحمد: إني نظرت في حال العناصر الأربعة فلم أجد عنصراً منها له سلطان على الهواء والماء وعلى العنصر الثالث أعني الأرض وما ينشأ فيها، ويعيش على ظهرها من الحيوان غير العنصر الرابع الذي هو النار وسأذكر كيفية إصلاح النار للعناصر الثلاثة الأخر إذا هي فسدت معاً أو فسد أحدها ونعت كيفية انحطاط شعاعها وحرها إلى وجه الأرض ووصوله إلى أرحامها لإخراج النبات وتوليدها أحجار المعادن، وما في ذلك للحيوان والنبات من المنافع والنشوء ودوام الحياة، ولما كانت النار ألطف العناصر طباعاً وأعلاها مكاناً وكانت

في كيفيتها حاوية لما دونها من العناصر الثلاثة ومستولية عليها وحاكمة فيها وجب أن يكون يستدرك إصلاح ما فسد منه غيرها وتلطيف ما كيف منها وغلظ ووجدناها بالحقيقة تفعل في ذلك فعلاً قوياً، ويؤثر فيه تأثيراً حسناً".

وينصح باستعمالها لتنقية الهواء بواسطة التدخين:

"وذلك أنا لا نصل إلى تلطيف الهواء الغليظ وترقيقه وتحليل الغلظ العارض فيه بغير إيقاد النيران في المجالس والمساكن وبالقرب من المراقد وباستعمال الدخن التي ركبتها الأوائل وغيرها من الدخن المصلحة للهواء التي أتينا بذكرها آنفاً".

أما المياه فيجب غليها ثم تصفيتها بالخزف المخلخل، وإذا كان فيه بعض التراب وغيره فتستعمل أدوية خاصة فيقول:

"وأن يعنوا من ذلك بإصلاح الذي تغتذي به أجسادهم وتترطب به أكبادهم إذ بالماء حياة كل حي ونمو كل نام من الحيوان والنبات والمعادن وليس إصلاح الماء الفاسد ممكنة بغير طبخة بالنار إذ النار بحرها تحلل ما فيه من الغلظ وتزيل عنه ما مازجه من فساد الهواء..

قال محمد: فأما إصلاح الماء الفاسد بالنار وكيفية عمله فسبيل من أراد إصلاحه بالنار أن يطبخه في آنية من النحاس المونك(١٧) أو من حديد البرام.. وسبيله أن يديم طبخه حتى يذهب منه الربع ثم ليبرّد في آنية من جديد الخزف الرقيق المتخلل الأخير الكثير الرشح.. وينبغي أن نعلم أن أفضل هذا الماء

المطبوخ المبرد وألطفه وأنفعه رشحه وهو ما رشح منه في آنية الخزف الجديد المتحلل الأجزاء الدائم الرشح فليعتمد شرب ذلك منه.. فأما تصفية الماء الكدر فإنه قد يحتال لتصفية الماء الطيب الخفيف إذا كان كدراً في أوقات المدود لأجل أنواع الترب التي يمر بها ويجري عليها بوجوه من العلاج فمنه ما يُصفّي بأن يلقي فيه اليسير من الشب الأبيض اليماني، أو بأن يلقى فيه شيء من لب نوى المشمش أو قلوب اللوز المر مدقوقة أو اليسير من ملح الطعام مدقوقاً أو يلقى فيه شيء من خشب الساج فإنه إذا ألقي في الماء الحلو الكدر أحد هذه الأشياء وحرك به تحريكاً جيداً ثم ترك ساعة زمانية فإنه يصفيه ويروقه ويميز العنصر الأرضي منه بسرعة.

وكل هذا صحيح برمته حتى يومنا هذا. وكأنما اكتشف مصفاة "شامبرلان" المبنية على تصفية الماء بالخزف على عدة طبقات.

المصادر:

١- Leclerc Lucien: Hestoire de la Medecine Arabe- 1878-T.1-p.19

٢-القوصوني المصري: مدين بن عبد الرحمن- قاموس الأطباء وناموس الألباء- مصورات مجمع اللغة العربية دمشق - ١٩٧٩-ج١-ص١٦

٣-ابن رضوان: علي- كتاب في دفع مضار الأبدان عن أرض مصر- مخطوطة دار الكتب المصرية. الفصل الحادي عشر.

٤-التميمي أبو عبد الله- محمد بن أحمد بن سعيد الحكيم المقدسي ثم المصري التميمي. مادة البقاء في إصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الوباء- المكتبة المارونية بحلب. مخطوطة ورقة ٥٦١.

٥-ابن سينا: الحسين بن علي- القانون- طبعة بولاق - أوفست بغداد ج٣- ص٦٤-٦٦

وطبعة روما سنة ١٥٩٣ المقالة الثانية من الفن الأول ص٣٤-٣٥

٦-المصدر رقم ١ص٢٧

٧-الرازي: أبو بكر محمد بن زكريا- الحاوي - حيدر آباد الدكن - ج١٧- ص٢-٣

٨-الرازي: ج١٧-ص١٤

٩-الرازي ج١٧ - ص٢٣-٢٤

١٠-المصدر رقم ٧ ج٣-ص١٢١

١١-المصدر رقم ٧ ج١٧ ص٤

١٢-البغدادي: عبد اللطيف موفق الدين محمد - كتاب الأفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والمعاينة بأرض مصر- طبعة المجلة المصرية بلا تاريخ - ص٦٥-٦٨

١٣-يقال: أفلت فلان بجريعة الذقن أي نجا بعد إذ أشرف على التلف (المجلة)

١٤-يقال: "أفلت فلان بجريعة الذقن أي نجا بعد إذ أشرف على التلف

(المجلة)

١٥-أي القليل إشارة إلى الحديث: "لا يموت لمؤمن ثلاثة أولاد وتمسه النار إلا تحلة القسم" (المجلة)

١٦--Walker Denneth: Histoire de la Médecine- Bruxelles-1962-pp.97-98

١٧-المؤنك أي المطلي بالآنك وهو الأسرب أي القصدير ونقول في العصر الحاضر المبيض (المجلة).

١ يصفه الشيخ كامل الغزي في كتابه نهر الذهب بقوله: "فيها كان الغناء العظيم والطاعون العميم، الذي جاز البلاد والأمطار ولم يسمع به في سالف الأعصار وأخلى الديار والبيوت وأوقع الناس في علة السكوت وكان إذا طعن به إنسان لا يعيش أكثر من ساعة رملية، وإذا عاين ذلك ودع أصحابه وأغلق حانوته وحفر قبره ومضى إلى بيته ومات وقد بلغ عدد الموتى في حلب في اليوم الواحد نحو خمسماية وبدمشق إلى أكثر من ألف ومات بالديار المصرية في يوم واحد نحو العشرين ألفاً وهكذا أورد الخبر واستمر نحو سنة وفني به العالم نحو ثلثيهم وفيه يقول ابن الوردي: قيل إن هذا الوباء ابتدأ من الظلمات قبل وصوله إلى حلب بخمسة عشر عاماً وهو سادس طاعون وقع في الإسلام وعنه قيل إنه الموتان الذي أنذر به عليه السلام". الغزي جـ ٣ ص١٨٦.

٢ سيس مدينة في قيليقية (آدنة) حاصرها العرب ٧٠٤ وكانت عاصمة مملكة أرمينيا الصغرى (١١٨٦) فتحها المماليك وخربوها (١٣٧٤) لها مقام ديني خطير عند الأرمن لأنه جرب فيها رسامه القديس غريغوريوس المنور أسقفا أول بطاركتهم (٢٦٧) المنجد – الأب معلوف ص٢٧٧.

٣ HYSTERIE COLLECTIVE

المحتويات

أما أسباب الأوبئة فيجمعها علي بن رضوان(٣) في أربعة: ٧

الجدري والحصبة ١٠

الطاعون ١٢

المعالجة ٢٢

المصادر: ٢٦